٢ — نموذج من تراجم القراء

# الحافظ عثمان الموصلي

Mollah Othmân le Mausilite.

يمر الناظر في كتب التاريخ وسير النوابغ على غرائب وعجائب من الانباء والحكايات والنوادر ؛ يقف العقل دونها مبهوتا ، ويتردد في قبولها ورفضها متحيرا ، بل يكاد يجزم بوضعها ويعتقد بطلانها اعتقادا لا مجال للامتراء فيه لو لم تتواتر وينقلها الاثبات ؛ ثم تؤيدها آثارهم ونتائج قرائحهم ؛ ويشاهد انلسا من نوعهم جمع الله العالم كله فيهم . كانهم خلقوا ليكونوا تذكرة لمن مضى وحجة على من جحد الايات .

ومن شاهد الحافظ عثمان الموصلي آمن قلبه بتلك الانباء ايمان شعر امية ابن ابي الصلت بالله رب العالمين . واذعن لكل ما يرويه المؤرخون من الانباء الغريبة في سير العالمين .

ولد الحافظ عثمان في الموصل سنة ١٢٧١هـ في حجر ابيه الحاج عبدالله بن الحاج فتحي بن عليوي المنسوب الى بيت الطحان . وفقد بصره صغيرا . وتوفي ابوه وهو في نحو السابعة من عمره ، فبقي يتيما ؛ فرآه السري الفاضل محمود افندي العمري ؛ وتفرس ان يكون اهلا للتربية والتثقيف ؛ فأخذه الى بيته وخصص له من يحفظه القرآن الكريم فحفظه حفظا متقنا وحفظ السيرة النبوية وطرفا من الاحاديث الصحيحة وجانبا كبيرا من الشعر . ثم رتب له من يدربه على اللحن والايقاع ويعلمه الموسيقي حيث انه رزق صوتا معبدّيا ينعش الارواح ، من كبوات الاتراح . وجرسا غريضيا يخرس الاطيار في اعالي الاشجار — فلم يزل يعاني الصنعة حتى جاءت منه آية نسخت آية ابراهيم بن ميمون الموصلي : فحلق طائر صيته في سماء العراق ، واصبح حديث المحافل والنوادي في الاصقاع والآفاق . فلما توفي مربيه العمري قصد بغداد :

وقبل كانت له بغداد عاشقة تقضي بذكراه اوقاتا وازمانا
على السماع به باتت متيمة «و الاذن تعشق قبل العين احيانا»

وكان اذذاك فيها ابنه الشاعر الاديب احمد عزت باشا العمري فحل ضيفا في بيته فالتف حوله الاكابر وحفت به عيون الاعيان ؛ واصبح في مغاني الزوراء فاكهة الاديباء ؛ ونقل الظرفاء : وشمامة النبلاء : تتهاداه الاكف من مجلس الى مجلس ومن ناد الى ناد والناس يخفون اليه سراعا من كل حدب لسماع قراءته ( المولد النبوي ) يحيون الليلة بعد الليلة مفضلين التلذذ بانغامه على لذة المنام . ولا ريب ان البغداديين من ارق الناس طباعا واشدها اهتزازا للاصوات الرقيقة والالحان الشجية كما هو مشهور في التاريخ ومشاهد اليوم ؛ فلا بدع اذا ما تعشقوا صوت الشيخ عثمان ولازموا مجالسه ملازمة الظل اصاحبه .

وبعد ان قضى زمنا في بغداد عزم على السياحة في العالم الاسلامي فشد الرحال الى الحجاز لاداء فريضة الحج المقدسة . وذكر لي بعض الفضلاء انه رأى في رحلة لكاتب تركي انه كان في مكة يخطب في المحافل ويدعو الحجاج الى الانقياد للعثمانيين وشد ازر الخلافة ؛ فسألته عن اسم الرحلة وصاحبها لاتحقق جلية الامر فلم يكد يتذكر . فاذا صح هذا فذهابه الى الحجاز كان سياسيا بايعاز من الحكومة .

ثم قفل الى الموصل ؛ وقرأ القراءات السبع على الشيخ محمد ابن الحاج حسن ثم قصد القسطنطينية وسلك لامر من الامور في الطريقة القادرية والمواوية . وحصل على مقام كبير .

ثم سافر الى سورية ومنها الى مصر للاجتماع بمغنيها الطائر الصيت عبده الحمولي فلازمه واستفاد من طريقته الحديثة التي وفق فيها بين المزاجين المزاج العربي والمزاج التركي ؛ وقد رأيته كثير الاعجاب به حتى اذا ذكره زفر وبكى عليه . وقد اخذ في مصر القراءات العشر عن كبار القراء واساتذة التجويد كما اعجب به المصريون وتتلمذ عليه كثيرون في الموسيقي التركي ؛ كما جاء في كتاب الموسيقي الشرقي لمحمد كامل الخلعي (١) وغيره . واصدر فيها مجلة لم تمتد حياتها حيث اوفده السلطان عبدالحميد الى طرابلس الغرب لعجم عود الامام السنوسي وسبر اغوار مقاصده السياسية فاخص السنوسي بالغرض من مجيء

(١) انظر ص ٦٥ و ٩٣ و ١٨٢

الشيخ عثمان فاكرم مثواه واحسن اليه ثم جهزه فعاد ادراجه الى الاستانة ثم الى بغداد فاتفق ان دعا على رؤوس الاشهاد في جمع كثيف لسلطان العجم فنفاه تقي الدين باشا والي بغداد الى سيواس . وبعد منفاه ذهب الى الاستانة فعين استاذا للموسيقي في احدى مدارسها . وتزوج فيها . وبقي فيها زمنا طويلا في نعيم مقيم واجلال وتعظيم الى قبيل الحرب الكبرى فبعثه الحنين الى سكنى العراق فجاء دار السلام ونزل ضيفا في ( بيت خيوكه ) امام دارنا القديمة في الرصافة فهرعت اليه الناس وتجاذبته ايدي الكبراء وامسى عند كل ذي عين ، جلدة مابين الانف والعين . وعاد الناس الى سيرتهم الاولى معه من احياء الليالي بقراءة ( المولد النبوي ) ونصب في أخرته شيخا للقراء ؛ وقرأت عليه(١) قبل نصبه سورة لقمان على السبع . وفجعت مدينة السلام بوفاته في اليوم الخامس عشر من جمادى الاخرة سنة ١٣٤١هـ وكان يوما شديد المطر كثير الرعد والبرق فلم يسمع كثير من الناس بموته إلّا بعد دفنه رحمه الله .

كان عثمان آية الزمان

كان هذا الرجل آية الزمان في سعة ادبه وعلمه وفرط ذكائه وفطنته ورقة شعوره واحساسه . وبراعته في فن الموسيقي وتفننه في قراءة القرآن المجيد .

كان اذا قرأ القرآن تخيلت « ابيا » يترنم بصوته الرخيم . يقرأ القراءات العشر بتفريع (١) وتنقل يدهش السامعين فكان بعض الناس يتوهمون انه غلط او حرف فيردون عليه فيصرخ : « اسكت ! ليس بشغالك ! » . ومما كان يزيد حسن صوته الرخيم الذي يملأ النفوس ويستفز الشعور تجويده للقرآن وادؤه المعاني حقها كأن يهول حيث يجب التهويل ؛ ويتلطف حيث يجب التلطف . ونحو ذلك مما لا يعقله إلّا العالمون بمعاني التنزيل ومواقع الكلام

اما ( المولد النبوي ) فبعد ان كان القرآء او قل « المغنون » خاملين في الصنعة لا يعرفون سوى الاسترسال في نغمة واحدة من البداءة الى النهاية حتى تكاد تزهق من سماعهم الارواح . وبعد ان بار سوق الغناء في دار السلام ولم

(١) في اوائل عام ١٣٣٨ هـ

(٢) التفريع هو ان يخرج القارئ او المترنم من نوع الى نوع ويعود اليه.

تبق له اقل قيمة واعتبار عنـــد الناس ــ اصبح بما وصل اليه الشيخ من الابتداع والاختراع الذي لم يعرفه العراقيون من قبل ، من ضروريات الحياة في نظر الناس . فما كانوا يسمعون به يقرأ في بيت إلّا وانسلوا اليه من كل حدب وضاق المكان بالشيب والشبان فكان ( كما قال سيد الشعرآء احمد شوقي المصري في مغن ) :

يخرج الملكين من حشمة الملـ ـك وينسي الوقور ذكر وقاره
رب ليل اغار فيـه القماري وآثار الحسان من اقمـاره
بصبا يذكر الرياض صبـاه وحجاز ارق من اسحاره
وغنـاء يدار لحنـا فلحنـا كحديث النـديم او كعقاره
وانين لو انه من مشوق عرف السامعون موضع ناره
يتمنى اخو الهوى منـه آها حين يلحى تكون من اعذاره
زفرات كأنهـا بث قيس في معاني الهوى وفي اخباره
لا يجاريه في تفننـه العو د ولا يشتكي اذا لم يجاره
يسمع الليل منه في الفجر يالي ل ! فيصغي مستمهلا في فراره

ذكاؤه وفطنته

واما ذكاؤه وفطنته فحـدث عن البحر ولا حرج . وكأني بمن لم يره يتردد في تصديق ما اذكره من غرائبه ونوادره : كان مع شيخوخته اذا سمع صوت انسان عرف اوصافه من حسن ودمامة وطول وقصر وعرف كم سنه . واذا لمس يد رجل فارقه مدة من الزمن عرفه في الحال . واغرب من هذا وذاك انه كان يعرف الرجل من قرع نعليه .

وكان يجيد الضرب ايما اجادة على العود والعزف بآلات الطرب بانواعها واللعب بالدمه (اي بالدامة) والشطرنج وسائر الالعاب العجيبة . ومر يوما في طريق من طرق بغداد فسمع من احد البيوت صوت عود غير منتظم فعرف حالا ان وترا من اوتاره لم يحكم شده فوقف وطرق الباب وقال : يا ضارب العود احكم الوتر الفلاني وسماه باسمه ! فقال الرجل : انا اردت ذلك بارك الله فيك !

ونوادره اوسع من ان يحيط بها نطاق الحصر .

واما حافظته فقد كان امره فيها عجبا . حفظ ماشاء الله ان يحفظ من الشعر والقصص والنوادر ، واستظهر في بغداد صحيح الامام البخاري برمته . وذكر لي شيخنا علامة العراق الامام السيد محمود شكري الالوسي رحمه الله انه حاول ان يأخذ عنه العربية . قال : فاشترطت عليه حفظ كل ما القيه عليه وادرسه اياه عن ظهر غيب ؛ فتبسم وقال : شرط عظيم ! قال الاستاذ : فكان لا يمر على الدرس مرة واحدة إلّا ويحفظه بلفظه من غير ان ينقص منه او يزيد عليه ... ولقد رأيته يرتجل في المجالس الشعر ولا سيما ( التواريخ ) ارتجالا فيأتي سهلا لا كلفة فيه ولا يكاد يخطىء في التاريخ .

اخلاقه

كان رحمه الله طيب الحديث لسنا فصيحا لا يمله الجليس حلو العشرة وربما كانت تعتريه الحدة في بعض الاحايين فيتكلم بما يضحك الثكلى ويذهب بثقل الحبلى . ولكن الغالب على طباعه سلامة الصدر وطيب السريرة وكثرة الوفاء والسخاء وعزة النفس والاباء الى غير ذلك من الصفات الحميدة التي حرمها اكثر العصر .

وكان صادقا في لهجته غيورا على مصالح امته . ومواقفه الوطنية في الثورة العراقية اشهر من ان تذكر فقد كان الناس بحجة قراءة (المولد النبوي) يحيون الليالي في المظاهرة على الحكومة المحتلة ويتناشدون الاشعار الحماسية ويلقون الخطب الوطنية كانها الشرر . فيأتون بالشيخ عثمان رئيس القرآء فيفرع المنبر ويأخذ في ارتجال الشعر والخطب المحرضة حتى يترك الناس على اشد من الجمر ويدعهم يتلهفون للطعن والضرب في ساحة الوغى !

لباسه وخلقه

كان يلبس سروالا وجبة وبرأسه طربوشا اصفر طويلا كالذي تلبسه المولوية في فروق والشام ثم استبدل منه قبل وفاته بثلاث سنوات «الكشيدة» وهي عمامة فيها وشي .

وكان قوي البنية كبير الجسم ممتلئه ربع القامة اسمر اللون اشقر الشعر جهير الصوت بطيء السير يقوده احد تلاميذه غالبا وكثير من الناس . واذا

ترك وحده سرقوا كيسه اوسبحته او عصاه او حذاءه . فتثور ثائرته ويخرج به الامر الى سب نفسه والعربدة على الله ...! ثم يثوب اليه رشده فيستغفر ويتوب !

تاليفه

خدم رحمه الله العلم والادب خدمة جليلة بنشر بعض آثار كبار العلماء والادباء فنشر ديوان (١) عبدالباقي العمري الشاعر الشهير . وكتاب الطراز المذهب (٢) . وكتاب الاجوبة العراقية عن الاسئلة الايرانية (٣) : وكلاهما من تآليف شيخ مشايخنا الامام المفسر الخطير ابي الثناء شهاب الدين محمود الالوسي . ونشر كتاب التوجع الاكبر بحادثة الازهر . وخواتم الحكم في التصوف ولم اطلع عليهما .

وله شعر كثير من جملته تخميس بائية عبدالباقي العمري في رثاء الحسين رضي الله عنه ، وتخميس لامية البوصيري المفتوحة وتخميس قصيدة الشيخ مصطفى البكري ، وتشطير قصيدة لابن المقري الشهير يزعمون انها تقرأ على عشرة ملايين من الاوجه!! وقد ذكرها الخزرجي في طبقاته وشرحها في مجلد لطيف. وقد جمع كل ذلك بمجموعة في ٥٠ صفحة دعاها « الابكار الحسان في مدح سيد الاكوان » وطبعت خمس مرات .

وانشأ في مصر مجلة باسم ( المعارف ) . قالت فيها مجلة ( البيان ) للشيخ ابراهيم اليازجي : المعارف — ورد علينا العدد الاول من مجلة معنونة بهذا الاسم لصاحبها ومحررها الفاضل منلا عثمان افندي الموصلي وهي علمية سياسية تاريخية ادبية اخبارية . وفيما نعهده في حضرة محررها المشار اليه من غزارة الادب والبراعة في صناعة الانشاء ما يضمن لها التقدم بين الصحف العربية .

محمد بهجة الاثري

(١) طبعه بمصر سنة ١٣٩٦ هـ

(٢) طبعه بمطبعة جريدة الفلاح بمصر

(٣) طبعه في مطبعة مكتب الصنائع في الاستانة سنة ١٣٠٧